على ذلك، ومن هذه النصوص ، قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ سورة العنكبوت (٢٠)، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة محمد (١٩) .

(المطلب الثالث)

الطرق الصحيحة إلى معرفة الله تعالى

إن ذاته سبحانه وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وإن كانت غير مستحيلة لمدركات العالم المحسوس ، لكنها ليست على نحو يستحيل التعرف عليها بوجه من الوجوه ، ومن هنا نجد أن الحكماء والمتكلمين يسلكون طرقاً مختلفة للتعرف على ملامح العالم الرّبوبي، وهم يرون أن ذلك العالم ليس على وجه لا يقع في أفق الإدراك مطلقاً ، بل هناك نوافذ على الغيب عقلية ونقلية، يُرى منها ذلك العالم الفسيح العظيم، وها نحن نشير إلى هذه الطرق:

الأول / الرجوع إلى الكتاب والسُنة المطهرة :

وهناك أصل ثالث يعتمد عليه أتباع الشرع ، وهو التعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله من خلال ما ورد في الكتب السماوية وأقوال الأنبياء وكلماتهم ، وذلك بعد ما ثبت وجوده سبحانه وقسم من صفاته ، ووقفنا على أن الأنبياء مبعوثون من جانب الله وصادقون في أقوالهم وكلماتهم وبفضل الوحي – الذي لا خطأ فيه ولا زلل – نقف على ما في المبدع الأعلى من نعوت وشؤون .

الثاني / الرجوع إلى العقل :

إذا ثبت كونه سبحانه غنياً غير محتاج إلى شيء ، فإن هذا لا يمكن أن يكون مبدأ لفيات كثير من الصفات الجلالية، فإن كل وصف استلزم خللاً في غناه ونقضاً له تعالى ، عنه ولزم سلبُهُ عن ذاته تعالى .

لذا نجد الكثير من الفلاسفة والعلماء قد سلكوا هذا السبيل للبرهنة على جملة من الجلالية، أمثال الفيلسوف الإسلامي نصير الدين الطوسي إذ قال: ((ووجوب

الوجود يدل على أنه سرمد، ونفي الزائد، والشريك، والمثل، والتركيب بمعانيه، والضد، والتحيز ، والحلول ، والاتحاد ، والجهة ، وحلول الحوادث فيه ، والحاجة ، والألم مطلقاً واللذة المزاجية ، والمعاني والأحوال والصفات الزائدة والرؤية)) .

بل انطلق المُحقّق في هذه المسألة من نفس هذه القاعدة لإثبات سلسلة من الصفات الثبوتية إذ قال: ((ووجوب الوجود يدل على ثبوت الوجود، والملك، والتمام، والحقّية، والخيرية، والحكمة، والتجبر، والقهر، والقيوميّة)).

وقد سبقه إلى ذلك جمعٌ من العلماء الأفاضل، وعلى ذلك يمكن الإذعان بما في العالم الربوبي من الكمال والجمال بثبوت أصل واحد وهو كونه سبحانه موجوداً غنياً واجب الوجود ، وليس إثبات غناه ووجوب وجودهَ أمراً مُشكلاً على العقول.

ومن هذا تنفتح نوافذ على الغيب والتعرف على صفاته تعالى الثبوتية والسلبية ، كما سنعرف البرهنة على هذه الصفات من هذا الطريق لاحقاً.

الثالث / المطالعة في الآفاق والأنفس:

وذلك عن طريق الحس والحواس فهي تُعد من الطرق والأصول التي يمكن التعرف بها على صفات الله ، هي مطالعة الكون المحيط بنا ، وما فيه من بديع النظام ، فإنه يكشف عن علم واسع وقدرة مطلقة عارفة بجميع الخصوصيات الكامنة فيه وفي كل القوانين التي تسود الكائنات . فمن خلال هذه القاعدة وعبر هذا الطريق أي مطالعة الكون ، يمكن للإنسان أن يهتدي إلى قسم كبير من الصفات الجمالية وبهذا يتبين أن ذات الله سبحانه وصفاته بحكم أنها ليس كمثلها شيء ، وهذا لا يعني أنها محجوبة عن التعرف المطلق وغير واقعة في أفق التعقل ، حتى نُعطل العقول ونقول: ((إنما أعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية)) هذا وان الله سبحانه قد أمرنا بكتابه الكريم بسلوك هذا الطريق. بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾سورة يونس (١٠١). وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ سورة آل عمران (١٩٠) وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة يونس (٦). ومن ذلك الكثير.

الرابع / الكشف والشهود:

وهناك ثلة قليلة يشاهدون بعيون القلوب ما لا يُدرك بالأبصار ، فيرون جماله وجلاله وصفاته وأفعاله بإدراك قلبي ، يدرك لأصحابه ولا يوصف لغيرهم .

والفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والإلقاءات في الروع غير مسدودة ، بنص الكتاب العزيز . قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ سورة الأنفال (٢٩). أي يجعل في قلوبكم نوراً تُفرقون به بين الحق والباطل وتُميزون به بين الصحيح والزائف لا بالبرهنة والاستدلال بل بالشهود والمكاشفة .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة الحديد (٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ سورة العنكبوت (٦٩). وإلى غير ذلك من الآيات الظاهرة في أن المؤمن يصل إلى معارف وحقائق في ضوء المجاهدة والتقوى ، إلى أن يقدر على رؤية الجحيم في هذه الدنيا المادية ، قال تعالى :

﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة التكاثر (٥-٦).

نعم ليس كل من رمى أصاب الغرض ، وليست الحقائق رمية للنبال ، وإنما ليصل إليها الأمثل فالأمثل ، فلا يحظى بما ذكرناه من المكاشفات الغيبية والفتوحات الباطنية إلا النزر القليل ممن خَلُص روحه وصفى قلبه .

وقد بان بهذا البحث الضافي ، أنه ليس لمسلم التوقف عن محاولة التعرف على الله تعالى بما له من صفات وأسماء وأفعال بحجة أنه لا مسانخة بين البشر وخالقهم .

نعم ، نحن لا ندّعي أن بعض هذه الطرق ميسورة السلوك للعامة جميعاً ، بل منها ما هو علم متاح لكل إنسان يريد معرفة ربه ، ومنها ما هو خاص يستفيد منه من بلغ مبلغاً خاصاً من العلم والمعرفة .